﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾

[الأنعام: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبطُ بين الفتنةِ بالشِّركِ في الدُّنيا، والتَّبرُّؤ منهُ في الآخرةِ

لمّا بيَّن الله تعالى كونَ المشركين مفتونينَ بِشركهم مُتهالِكينَ على حبِّه؛ أعلمَ في هذه الآية أنَّه لم يكن افتتانهُم بِشركهم وإقامتهم عليه، إلّا أن تبرَّؤوا منه، وتباعدوا عنه، فَحَلفوا أنَّهم ما كانوا مشركينَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَتُهُمۡ﴾: الفتنةُ: الابتلاءُ والامتحانُ والاختبارُ، يُقالُ: فَتَنتُه، أفتِنُه، فَتْنًا وفُتونًا: إذا امتَحَنتُه، وأصلُ الفتنةِ مِنَ الفَتْنِ، وهو الإحراقُ، يُقالُ: فَتَنتُ الذَّهبَ، أي: أحرَقتُه بالنّار؛ لتمييز الجيِّد منَ الرَّديء، ويُسمَّى الصّائغ: الفتّانَ، ومن معاني الفتنةِ: التَّنقيةُ، والإزالةُ، والإعجابُ، والإثمُ، والقتلُ[2].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

تبرُّؤ المشركين من شِركهم يومَ العرضِ على اللهِ في موقفِ الحشرِ

بيَّن اللهُ في هذه الآيةِ موقفَ الَّذين أشركوا يوم القيامةِ، بقولِه عنهم: ثمَّ لم تكن عاقبةُ الشِّرك ونتيجتُهُ الَّتي رأوها ماثلةً للعيان يوم القيامة، إلّا قولهم كذِبًا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، بل كنّا مؤمنين بك، موحِّدين لكَ، وذلك موقفٌ لهم في غايةِ التَّخاذلِ والخزي والحَيْرة[3]، بعدما كانوا مغترّين بالشِّرك، وبدينِ آبائهم وأجدادِهم[4].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/502، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/333.

(2) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، والجرجانّي، التّعريفات: (فتن)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 692.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/189 - 192، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/176، وطنطاويّ، الوسيط: 5/57.

(4) حجازي، التّفسير الواضح: 7/68.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾:

كلُّ قولٍ فاسدٍ، أو اعتقادٍ ضالٍّ، فهو فتنةٌ بَلْقاءُ

آثَرَ القرآنُ الكَريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿ثُمَّ﴾ الَّتي تفيدُ التَّرتيبَ الرُّتبيَّ، وهو الانتقالُ من خبرٍ إلى خبرٍ أعظمَ منه[1]، وأيضًا فيه إشارةٌ إلى أنَّ المشركين تحيَّروا في أمرِ الإجابةِ، فدفَعَتْهم حَيْرتُهم إلى الكذبِ المتعمَّد لمّا ضاقَت عليهم السُّبل، وفي ورود ﴿ثُمَّ﴾ هنا "إشارةٌ إلى أنَّ هذا القول الَّذي قالوه، هو فتنةٌ أخرى؛ إذ ما زالوا على ضلالِهم القديم، وتصوُّرِهم الفاسدِ، أنَّه تعالى لا يعلمُ ما قدَّموا وما أخَّروا، وما أَسَرّوا وما أَعلنوا.. فسمَّى (ﷻ) هذا القولَ منهم فتنةً.. ولم يقل (سبحانه): ثمَّ لم يكن قولهُم، أو جوابُهم.. إذ كان قولهُم هذا، هو فتنةٌ لهم وضلال مبينٌ"[2].

دلالةُ اختيارِ ﴿لَمْ﴾ دون غيرِها في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾:

أداةُ النَّفي ربطٌ لحاضرِهم في الحشرِ، بماضيهم الآثمِ في الدُّنيا

اختار القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بـ ﴿لَمْ﴾؛ لأنَّها تحوِّل المضارعَ إلى ماضٍ، وفي هذا إشارةٌ إلى تمكُّنِ وصْفِ حالتِهم الَّتي هم عليها في يومِ القيامة، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ سببَ الفتنة شركُهم، وهو موصولٌ بما فعلوا في دنياهم، ومعنى السّياق: "لم يكن جوابُهم حين يُفتنون ويُختبرون بذلك السُّؤال؛ إلّا إنكارَهم لشركِهم، وحَلِفَهُمْ أنَّهم ما كانوا مشركين"[3].

التَّعبيرُ بلفظِ (الفتنة) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾:

لفظُ (الفتنة) أوفقُ منَ التَّعبيرِ بجوابِهم؛ لأدائِهِ معنًى واحدًا فقط

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ الفتنة؛ لأنَّها في كلام العرب لفظةٌ مُشْتَرَكةٌ لها إطلاقاتٌ عديدةٌ، تتناسب بعضُها مع سياقِ الآيةِ؛ فمن هذه المعاني: أنَّها حُبُّ الشَّيء والإعجاب به، كما تقول: فُتِنْتُ بكذا، ومعنى الآية على هذا أنَّهم كانوا معجَبين بِكُفْرِهم، مفتخِرين به.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/175.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 4/148..

(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 253.

وتُطلق على اضطرابِ الرَّأي، والحَيرة في الأمرِ، ويكون التَّقدير على هذا في المعنى، لمّا سُئِلوا: أين شركاؤكم الَّذين كنتُم تزعمون؟ فاضطربوا واحتاروا في الجوابِ؛ فافتتنوا فيمَ يجيبون، فكان جوابُهم أن قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وتُطلقُ أيضًا على معنى الاختبارِ، والمرادُ به السُّؤال؛ لأنَّ السُّؤال اختبارٌ عمّا عندَ المسؤولِ منَ العِلم، أو منَ الصِّدق، ويتعيَّن حينئذٍ تقديرُ مضافٍ، أي: لم يكن جوابُ فتنتِهم، أي: سؤالُهم عن حالِ إشراكِهم إلّا أن قالوا: واللّه ربِّنا ما كنّا مشركين[1].

وتُطلق الفتنةُ على الشِّرك والافتتانِ بالأوثانِ، ويُؤيِّد هذا الوجهَ ما روى عطاءٌ عن ابن عبّاس في هذه الآيةِ في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾، قال: (يريد شركَهم في الدُّنيا)، وهذا القولُ في التَّأويل راجعٌ إلى حذْف المضافِ؛ لأنَّ المعنى: لم تكن عاقبةُ فتنتهم إلّا البراءةَ، ومثلهُ قولُك: ما كانت محبَّتك لفلانٍ إلّا أنِ انتفيتَ منه، أي: عاقبةُ محبَّتك[2].

ولأجل هذه المعاني كان اصطفاءُ لفظ الفتنةِ أوفقَ منَ التَّعبير بجوابِهم؛ لأنَّه سيؤدّي معنًى واحدًا فقط.

دلالةُ إضافةِ الفتنةِ إلى الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾:

يندمُ المشركون يومَ القيامةِ، ولاتَ حين مَنْدَمٍ

أضافَ الفتنةَ إلى لفظِ ضميرِهم؛ للدَّلالةِ على أنَّهم هم الَّذين أوقعوا أنفسَهم فيها بسبب شركِهم وإعجابِهم بما فعلوا، "إنَّ الحقيقةَ الَّتي تجلَّت عنها الفتنة، أو الَّتي تبلورت فيها الفتنةُ، هي تَخَلّيهم عن ماضيهم كلِّه وإقرارُهم بربوبيَّة اللّه وحده، وتعرّيهم من الشِّرك الَّذي زاولوه في حياتِهم الدُّنيا.. ولكن حيثُ لا ينفعُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/278، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/175 - 176.
(2) الواحديّ، البسيط: 8/57، وطنطاويّ، الوسيط: 5/57.

الإقرارُ بالحقِّ والتَّعرّي من الباطلِ.. فهو إذًا بلاء هذا الَّذي تمثِّله قولتُهم، وليس بالنَّجاة.. لقد فات الأوانُ.. فاليوم للجزاءِ لا للعمل.."[1].

دلالةُ أسلوبِ القَصْرِ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾:

دلالةُ الاستثناءِ في الآيةِ الكريمةِ

في الآيةِ أسلوبُ قَصْرِ صفةٍ على موصوفٍ، الفتنةُ مقصورٌ، والمقصورُ عليهِ هو الكذبُ الغليظُ، وهي مرتكزةٌ على الاستثناءِ، وعليه فإمّا أن يكون استثناءً مُفَرَّغًا، فيكونُ المستثنى منه منَ الأقوالِ الموصوفةِ بأنَّها فتنةٌ، فالتَّقدير: لم يكن لهم قولٌ هو فتنةٌ لهم إلّا قولَهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، وإمّا أن يكونَ القولُ المستثنى دالًّا على فتنتهم، أي: على أنَّهم في فتنةٍ حين قالوهُ، وأيًّا ما كان؛ فقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، متضمِّنٌ أنَّهم مفتونون حينئذٍ[2]، والتَّقدير: (ثمَّ لم تكن فِتْنَتُهُم إلّا قولُهم)، وإنَّما كانت أفصحَ؛ لأنَّه إذا اجتمع اسْمانِ: أحدهما أعرفُ، فالأحْسَنُ جعلُه اسمًا مُحَدَّثًا عنه، والآخر خَبَرًا حديثًا عنه"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي (قالوا) في موضعِ المضارعِ:

ما ذكرهُ القرآنُ ممَّا سيقعُ وكأنَّه من الماضي؛ من الإعجازِ الغيبيِّ

عبَّر بصيغةِ الفعلِ الماضي (قالوا) في موضع المستقبل تحقيقًا لوقوعه[4]، والمعنى: "ثمَّ لم تكن عاقبةُ كفرهم - الَّذي لزموه أعمارَهم، وقاتلوا عليه، وافتخروا به، وقالوا: دين آبائنا - إلّا جحودَهُ والتَّبرُّؤَ منه"[5]، وهذا الملمحُ المذكورُ، سوف يكون واقعًا بلفظهِ ومعناهُ؛ لأنَّ الإخبارَ من عالمِ السِّرِّ وأخفى، ومَن بيدهِ مقاديرُ الأمورِ، وتصاريفُ الأحوال، فلا يقع المقدور إلّا بما هو في علمهِ مسطورٌ.

(1) سيّد قطب، في ظلال القرآن: 2/1064.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/120، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/176.
(3) ابن عادل الدّمشقيّ، اللُّباب في علوم الكتاب: 8/72.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/467.
(5) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/422.

دلالةُ توكيدِ الخبرِ بالقَسَمِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾:

القَسَمُ بيانٌ لعظمةِ المُقْسَمِ به في سياقِ الآيةِ الكريمة

توكيدُ الخبرِ بالقَسَمِ في الآيةِ دليلٌ على إحساسِهم النَّفسيِّ بأنَّ كذِبَهم مفضوحٌ لا يمكنُ تصديقُه، فَحَمَلَهم جهلُهم بمعرفة الله في الدُّنيا على إعلان الكذبِ عليه في الآخرةِ، وهم في الواقعِ لم يكذبوا إلّا على أنفُسِهم، وفيه كنايةٌ عنِ التَّبرّي عنِ الشِّرك، وانتفاءِ التَّديُّن به.

دلالةُ ذِكْرِ الرُّبوبيَّةِ بعد ذكرِ الأُلوهيَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾:

القَسَمُ بالاسْمَيْنِ الجليلينِ مبالغةٌ في التَّنصُّلِ منَ الشِّرك

دلَّ قولهم: (ربِّنا)، ووصفُهم للمولى بذلك على المبالغةِ في التَّبرُّؤ منَ الإشراكِ[1] به شيئًا منَ المعبوداتِ، وذِكرُ المشركين الرَّبَّ (ﷻ) بالإضافة إلى ضميرِهم، ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ مبالغةٌ منهم في التَّنصُّل منَ الشِّرك، أي: لا رَبَّ لنا غيره، وقد كذَّبوا، وحلفوا على الكذب؛ جرّيًا على سَنَنِهم الَّذي كانوا عليه في الحياة[2].

أثرُ القراءاتِ في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾:

تنوُّع القراءةِ في ألفاظِ الآيةِ، يفسحُ المجالَ لأكثرَ من معنى

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، قراءتان: الأولى: قراءةُ ﴿وَٱللَّهِ رَبَّنَا﴾ بنصبِ (ربَّنا) على النِّداء، بمعنى: (واللهِ يا ربَّنا)، وفيه معنى الخضوعِ والتَّضرُّع للهِ تعالى[3]. والقراءةُ الأخرى: قراءة ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ بجرِّ (ربِّنا) على النَّعتِ للّه (ﷻ)، والثَّناء عليهِ بما هو أهلُه[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الفتنة)، و(الابتلاء)، و(الاختبار):

الفتنةُ أشدُّ الاختبارِ وأَبْلَغُه، ويكون في الخيرِ والشَّرِّ، أَلا تسمعُ

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/53، والسّمين، الدّرّ المصون: 7/81، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/120، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/11، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/197.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/177.

(3) قرأ بها حمزة والكسائّي وخلَف. يُنظر: ابن الجزريّ، النّشر، ص: 230، ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ابن خالويه، الحجَّة، ص: 137، ومكّيّ بن أبي طالب، الكشف: 1/427.

(4) قرأ بها الباقون. يُنظر: ابن الجزريّ، النّشر، ص: 230. ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 244.

الـفـتـنـةُ خـيرٌ وشـرٌّ، والابتلاءُ تحمُّلُ مكروهٍ

قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: 28]، وقوله تعالى: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجنّ: 16 - 17]، فجَعلَ النِّعمةَ فتنةً؛ لأنَّهُ قَصَدَ بها المبالغةَ في اختبارِ المُنْعَم عليهِ بها، كالذَّهب إذا أُريدَ المبالغةُ في تعرُّف حالهِ أُدْخِل النّار، واللّه تعالى لا يختبر العبدَ لتغيير حالهِ في الخيرِ والشَّرِّ، وإنَّما المرادُ بذلك شدَّةُ التَّكليف.

الاخـتـبـارُ يكون في فعل محبوب وفـــي تـحـمُّـلِ مكروهٍ

أمّا الفرقُ بين الاختبار والابتلاءِ: فالابتلاءُ عادة لا يكون إلّا بتحميلِ المكارهِ والمشاقِّ، والاختبار يكون بذلك، وبفعل المحبوبِ، ألا ترى أنَّه يُقال: اختبرهُ بالإنعامِ عليه، ولا تقولُ: ابتلاه بذلك، ولا هو مبتلى بالنِّعمةِ، والاختبارُ يقتضي وقوعَ الخبر بحالهِ في ذلك، والخبرُ العلم الَّذي يقع بِكُنْهِ الشَّيءِ وحقيقتهِ، فالفرقُ بينهما بيِّنٌ.

والفتنة تأتي أيضًا بمعنى الابتلاءِ، كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: 1 - 3][1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 396، وعدد منَ المتخصّصين، نضرة النّعيم: 1/8.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»